23 يناير 2022

العلاقات الروسية الغربية: طبول بلا حرب

د. نورهان الشيخ*

منذ نهاية العام الماضى وطبول الحرب تتصاعد بين روسيا والغرب، حتى أعتقد البعض أن المواجهة المباشرة بين الجانبين أصبحت وشيكة فى أوكرانيا، وجاءت تطورات الأحداث فى كازاخستان لتزيد الأجواء سخونة، وتضيف مزيد من التوتر فى العلاقات الروسية الغربية، وتطرح العديد من التساؤلات حول مستقبل هذه العلاقات، وهل الصدام العسكرى أمر وارد لاسيما فى ضوء تعثر المفاوضات الروسية الأمريكية في جنيف، وروسيا – الناتو في بروكسل، والتى كانت مباحثات "صعبة"، لم تنجح فى استبعاد شبح الصدام من خطاب الطرفين، وأكدت كون الخلاف بينهما عصى على التسوية التامة بالنظر إلى تباعد المواقف وتناقض المصالح، وتمسك كل طرف

* أستاذ العلاقات الدولية، جامعة القاهرة.

بموقفه ورفضه تقديم أى تنازلات تمس أمنه القومى. فى هذا السياق تبرز مجموعة من الأسئلة فى فهم وتحليل الوضع الراهن للعلاقات الروسية الغربية ومستقبلها المنظور.

أولها، لماذا التصعيد فى هذا التوقيت؟:

إن الأزمة الأوكرانية التى يدور حولها الحديث قائمة منذ عام 2014، وعلى مدى الثمانى سنوات الماضية شهدت كثيراً من الشد والجذب، إلا إن التوجه العام الحاكم لها كان التمسك بالحل السلمى والمفاوضات عبر "رباعية النورماندى"، التى تضم رؤساء كل من روسيا وأوكرانيا وفرنسا والمستشارة الألمانية، و"اتفاق مينسك 2015" الذى تم التوصل إليه فى إطارها،[1] كما شهدت هدوءاً وإنفراجاً ملحوظاً خلال فترة الرئيس الأمريكى دونالد ترامب.

من الواضح أن واشنطن هى من تمسك بإيقاع الأزمة، وأثر وصول إدارة بايدن للبيت الأبيض كثيراً على مسارها، فمنذ مطلع أبريل الماضى والتوتر يسود المشهد الأوكرانى، ليس فقط لما أعلنه بايدن من أن روسيا العدو الأول للولايات المتحدة وكونه مهندس السياسة الأمريكية خلال فترة التصعيد الأولى عام 2014، وإنما لعوامل موضوعية ومصالح هامة. من ناحية تسعى إدارة بايدن لإثبات جدراتها ومغازلة الداخل الأمريكى فى وقت تواجه الإدارة انتقادات حادة بسبب استمرار تردى الأوضاع الاقتصادية والعجز عن السيطرة على فيروس "كوفيد -19" وتداعياته ومتحوراته، إلى جانب استمرار ما يسمى بـ "الظاهرة الترامبية" وحالة الانقسام السياسى والمجتمعى الذى بلغ تصعيد غير مسبوق مع اقتحام مبنى الكونجرس فى 6 يناير من العام الماضى. فى هذا السياق، فإن تصعيد المواجهة مع روسيا له أهميته خاصة قبيل انتخابات التجديد النصفى للكونجرس الأمريكى المقررة هذا العام والتى يسعى الديمقراطيون لاستمرار تقدمهم بها.

من ناحية أخرى، تعمل إدارة بايدن على لم الشمل الغربى بعد ما أحدثه الانسحاب الأمريكى من أفغانستان ثم صفقة "أوكوس" من شروخ بين واشنطن وحلفائها الأوربيين، وشكوك حول إلتزام واشنطن بالأمن الأوروبي الذى لخصة بايدن فى شعار "America Back". ويعتبر تأجيج المخاوف الأوروبية من موسكو أو ما يطلق عليه البعض "شيطنة روسيا" عامل أساسى لتحقيق الاصطفاف الغربى، خاصة بعد أن تعالت بعض الأصوات الأوروبية مطالبة بإعادة تطبيع العلاقات مع موسكو ورفع العقوبات عليها نظراً لتأثيرها السلبى على المزارعين والاقتصاد الأوروبى عامة. كما يدعم هذا جهود واشنطن لتقليص النفوذ الروسى فى سوق الطاقة الأوروبى

وإتاحة مساحة أكبر لصادرات الغاز المسال الأمريكى لأهم وأقرب الأسواق إليها لاسيما بعد أن أصبحت الولايات المتحدة رابع أكبر مصدر للنفط والغاز فى العالم عام 2020.

يأتى هذا فى وقت تشهد روسيا نمواً ملحوظاً فى قدراتها العسكرية، واستقرار اقتصادى نسبى رغم ما يواجهه الاقتصاد الروسى من صعوبات، وشراكة قوية مع العملاق الصينى. إن روسيا الحالية ليست روسيا ما بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وما قبلته فى التسعينات وأوائل الألفية لا تقبله اليوم، وهناك إصرار من جانب الرئيس بوتين على ترتيب العلاقة مع الغرب باتفاقات وإلتزامات مكتوبة تضمن الأمن القومى الروسى لعقود قادمة قد لا يكون هو على رأس السلطة وقتها، وتمثل بصمة تاريخية له.

ثانيها، ما هى القضايا محل الخلاف والتصعيد؟:

هناك مدى واسع من القضايا محل الخلاف بين روسيا والغرب، لعل أهمها وأبرزها فى الفترة الراهنة:

(1) قضية توسيع الناتو وضم أوكرانيا:

على مدى ما يقرب من العقدين، منذ الثورة البرتقالية 2004، أصبحت أوكرانيا فى قلب رقعة الشطرنج بين واشنطن وموسكو. من ناحية تحاول الولايات المتحدة ومعها الاتحاد الأوروبى دمج أوكرانيا فى المنظومة الأمنية الغربية وضمها إلى حلف شمال الأطلسى (الناتو) لتحقق بذلك إنجاز استراتيجى غير مسبوق وتجعل صواريخها قادرة على ضرب موسكو فى غضون خمس دقائق دون أن تمتلك الأخيرة سرعة الرد. هذا فى حين لا تتصور روسيا أن يقف الحلف على أبوابها المباشرة، أو "على عتبة بيتنا" على حد تعبير الرئيس بوتين،[2] وأن تصبح كييف التى كانت يوماً عاصمة روسيا القديمة وجزء عضوى فى إمبراطوريتها القيصرية ثم السوفيتية خصماً لها. ورغم أن واشنطن فازت فى جولة الثورة البرتقالية، فإن موسكو فازت بالجولة التالية فى الانتخابات الرئاسية لعام 2010 بفوز فيكتور يانكوفيتش المقرب من موسكو، وجاءت الجولة الثالثة وإطاحة المعارضة المدعومة من الغرب بالرئيس يانكوفيتش عام 2014 لتكون طاحنة وتلقى بظلالها على العلاقات الروسية الغربية حتى اللحظة، فقد ضمت روسيا شبة جزيرة القرم، وأعلنت جمهوريتي دونيتسك ولوجانسك (منطقة دونباس شرق أوكرانيا) حيث أغلبية السكان من الروس استقلالهما، وأندلعت المعارك بين قوات الدفاع الذاتى فى الجمهوريتين وقوات الحكومة المركزية فى كييف،

وعاد شبح الحرب الباردة فى ظل التوتر بين موسكو وواشنطن خاصة فى ضوء العقوبات الواسعة التى فرضتها الأخيرة وحلفائها الأوربيين على روسيا وإقصائها من مجموعة الثمانية وتجميد مجلس روسيا الناتو وغيرها.

وقد تفجرت الجولة الحالية من التصعيد الروسى الغربى مع الحشود العسكرية الروسية التى بلغت 100 ألف جندى على حدودها الغربية مع أوكرانياً رداً على حشد الأخيرة 125 ألف جندى على حدود الدونباس استعداداً لإخضاع جمهوريتي دونيتسك ولوجانسك للسيطرة الأوكرانية بالقوة، وهو ما اعتبرته روسيا خرقاً لاتفاق مينسك للسلام 2015، وتهديداً للروس المقيمين فى المنطقة وللأمن القومى الروسى خاصة مع إعادة تأكيد الناتو على السعى لضم أوكرانيا ومعها جورجيا إلى عضويته، فيما تعتبره روسيا موجه سادسة من توسيع الحلف ومد بنيته العسكرية باتجاهها. وفى دائرة من التصعيد المتبادل حذرت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي من خطط روسيا "لغزو أوكرانيا" وعواقب ذلك، وهو ما نفته روسيا مؤكدة أن ما تتخذه من إجراءات داخل أراضيها هو لحماية أمنها القومى وكرد فعل لأنشطة الناتو العسكرية فى البحر الأسود وعلى الحدود الأوكرانية معها رغم أن الأخيرة ليست عضو فى الناتو بعد. وأن تحركاتها تأتى فى إطار العقيدة العسكرية الروسية لعام 2014،[3] وعقيدة السياسة الخارجية لعام 2016 ،[4] التى تنص على أن عدم التزام الحلف بمبادئ الأمن المتكافئ للجميع والتوسع وزيادة ترسانته العسكرية باتجاه روسيا هو التهديد الرئيسى للأمن القومى الروسى، ويقتضى التحرك بجدية لمواجهته باعتباره عملاً عدائياً ضد روسيا ويهدف إلى تطويقها.

بدأت المخاوف مع قرع طبول الحرب من الإنزلاق لمواجهة لا منتصر فيها ولا مهزوم، الكل خاسر دون شك. وحذرت روسيا من خطر وقوع مواجهة كبيرة مع الغرب ما لم تفكر واشنطن وحلفاؤها بجدية في تقديم ضمانات أمنية لموسكو، وتقدمت للجانب الأمريكى والناتو في 15 ديسمبر بمشروعي اتفاقين لضمانات أمنية ملزمة قانونا حول ثلاث قضايا محورية. أولها، عدم توسع الناتو شرقا بضم أوكرانيا وأي دول أخرى، وعدم إنشاء قواعد عسكرية في الجمهوريات السوفيتية السابقة غير المنتمية إلى الناتو واستخدام البنى التحتية فيها لممارسة أي أنشطة عسكرية، وعدم تطوير التعاون العسكري الثنائي معها حيث تخشى روسيا من اتفاقات ثنائية بين أوكرانيا وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا حال عدم انضمامها للناتو. ثانيها، التزامات بعدم نشر الصواريخ الأمريكية الجديدة متوسطة وقصيرة المدى في أوروبا. ثالثها، الحد من الأنشطة

العسكرية في أوروبا واستبعاد زيادة ما يسمى بمجموعات قوات المرابطة الأمامية، ووجوب تخلي الناتو عمليا عن الانتشار المادي في الدول التي انضمت إلى الحلف بعد العام 1997، أي بعد التوقيع على اتفاق روسيا الناتو.[5]

ورغم تعدد القنوات الدبلوماسية لوقف التصعيد بدءاً من قمة الرئيسان بايدن وبوتين عبر الفيديوكونفرس، والتى يمكن اعتبارها "قمة أوكرانيا"، فى 7 ديسمبر واستمرت ساعتين لبحث سبل الخروج الآمن من المواجهة، ثم المحادثات الهاتفية بينهما فى 30 ديسمبر والتى استمرت خمسون دقيقة، وما أعقب ذلك من ثلاث جولات من المفاوضات المباشرة بين روسيا والغرب حول الضمانات الأمنية التى تقدمت بها موسكو، فى جنيف مع واشنطن استمرت سبع ساعات ونصف يوم 10 يناير، ومشاورات مجلس روسيا – الناتو في 12 يناير فى بروكسل والتى كانت الأولى منذ عامين ونصف، ثم اجتماع لممثلي موسكو ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا في 13 يناير فى فيينا، إلا إنها جميعاً لم تنجح فى بلورة تفاهمات بين الطرفين، بل ولم تحدد موعداً لجولات أخرى قادمة.

فقد أصرت روسيا على إغلاق الباب رسميا أمام كلاً من أوكرانيا وجورجيا للانضمام إلى الناتو ووقف تمدده باتجاهها فى حين رفض الحلف ذلك جملة وتفصيلا، وأعاد الأمين العام للناتو، ينس ستولتنبرج، التأكيد على سياسة الباب المفتوح التي يتبعها الناتو، وحق كل دولة في اختيار الترتيبات الأمنية الخاصة بها، وأن الحلف لن يتنازل عن حق توسيع صفوفه، ونشر قواته في الشرق.[6] كما رفضت موسكو طلب الولايات المتحدة الخاص بإعادة تموضع القوات الروسية بسحبها من الحدود مع أوكرانيا وإعادتها لأماكن تمركزها، باعتبار ذلك شأناً داخلياً لا يجوز التدخل فيه لكون القوات داخل الأراضى الروسية.

(2) نشر الصواريخ متوسطة وقصيرة المدى فى أوروبا:

تعتبر من أهم محاور الخلاف بين روسيا والغرب، وبرزت عقب انهيار اتفاقية الصواريخ قصيرة ومتوسطة المدى (INF) بالانسحاب الأمريكى ثم الروسى منها عام 2019. وكانت الاتفاقية قد تم توقيعها فى 8 ديسمبر 1987، وتتعلق بالصواريخ ذات المدى المتراوح بين 500 و5500 كم فى أوروبا، ونجحت الاتفاقية فى التخلص من صواريخ "إس إس 20" الروسية و"بيرشنج" الأمريكية التي كانت منتشرة في أوروبا، وكانت الأخيرة هى المستفيد الأساسى منها

حيث تراجعت الصواريخ النووية المنتشرة بها من 60 ألف قبل المعاهدة، إلى 15 ألف صاروخا بعد دخول المعاهدة حيز التنفيذ. وإعادة نشر هذه الصواريخ سيؤثر حتماً على الأمن الأوروبي، لأن الصواريخ الروسية المتوسطة والقصيرة المدى يمكن لها أن تصل إلى برلين وباريس ولندن وليس إلى واشنطن ونيويورك، كما قد يؤدي ذلك إلى أزمة في مجال الرقابة على الترسانات النووية.

وقد أكد الأمين العام لحلف الناتو، ينس ستولتنبيرج، أن الحلف لا يخطط لنشر مزيد من الصواريخ النووية في أوروبا، الأمر الذى يعنى أن الأوربيين لن يسمحوا بتجدد المواجهة العالمية على أراضيهم مرة أخرى، ويرفضوا إعادة تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ من جديد بين موسكو وواشنطن. وطالب ستولتنبيرج، فى 14 ديسمبر، روسيا بتدمر كل ما لديهما من صواريخ SSC–8 التي تنتهك معاهدة الحد من الصواريخ متوسطة وقصيرة المدى، مؤكداً أن الناتو لا ينوي الرد على تصرفات روسيا بنشر صواريخ قادرة على حمل الذخيرة النووية في أوروبا، وأن الحلف لا يزال مستعدا للحوار مع روسيا ويؤمن بضرورة وجود نظام خاص للمراقبة على الأسلحة تجنبا لبدء سباق تسلح جديد[7].

هناك مخاوف أوروبية من أن تقوم روسيا بنشر صواريخها الفرط الصوتية، ذات السرعات الأعلى من الأمريكية، والتي يصل مداها إلى 5000 كم، رداً على ما تم تداوله من خطط أمريكية لنشر صواريخ Dark Eagle فرط الصوتية التى تبلغ سرعتها 4000 ميل في الساعة في ألمانيا وتحديداً فى قيادة المدفعية السادسة والخمسون، مما يعنى أن يستغرق وصولها من ألمانيا إلى موسكو 21 دقيقة و30 ثانية فقط. وعبر المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون"، جون كيربي، عن خشية واشنطن من إقدام موسكو على نشر صواريخ تسيركون فرط الصوتية الروسية الجديدة القادرة على حمل رؤوس نووية، وذلك عقب إجراء الفرقاطة الروسية "الأدميرال جورشكوف" اختبارات ناجحة لإطلاق "تسيركون" على هدف أرضي ونجاح الصاروخ في إصابة هدف على مسافة 350 كم في بحر بارنتس. وأشارت واشنطن مطلع يناير إلى إنها منفتحة لمناقشة نشر الصواريخ في أوكرانيا وأوروبا وإمكانية تقييد التدريبات الأمريكية والناتو طالما أن روسيا تتعهد بالتزامات "متبادلة"، وأن الولايات المتحدة ليس لديها خطط لنشر صواريخ هجومية في أوكرانيا، وأنها مستعدة أيضًا لمناقشة مستقبل بعض أنظمة الصواريخ في أوروبا على غرار معاهدة الصواريخ النووية متوسطة المدى التي لم تعد قائمة[8].

هـذا فـى حـين أعلـن الـرئيس الروسـي بـوتين عـن اسـتعداد موسـكو، بمحـض إرادتهـا، إلـى الامتنـاع عن نشر صـواريخ "9 M729" على القسم الأوروبي من الاتحاد الروسي، بشرط اتخاذ خطـوات مماثلـة مـن جانـب النـاتو. وأن موسـكو ستضـطر للـرد بالمثـل فـي حـال نشـر واشـنطن صـواريخها فـي أوروبـا، وأن الـدول الأوروبيـة التـي سـتوافق علـى نشـر الصـواريخ فـي أراضـيها تُعـرض أراضـيها لخطـر ضـربة مضـادة محتملـة مـن روسـيا.[9] وأعـرب سـيرجي ريـابكوف، نائـب وزيـر الخارجيـة الروسـي، عـن قلـق موسـكو مـن إمكانيـة انـدلاع أزمـة صـواريخ جديـدة فـي أوروبـا، داعيـا دول النـاتو إلـى التفكيـر فـي كيـف يمكـن جعـل الحظـر الروسـي الأحـادي لنشـر هـذه المنظومـات ثنائيـا ومتبـادلا وقابلا للتحقق.[10]

(3) نشر للديمقراطية أم ثورات ملونة:

تنطلـق الإدارات الديمقراطيـة بشـكل عـام وإدارة بايـدن خاصـة مـن إلتـزام واشـنطن بـ "نشـر الديمقراطيـة" كأحـد المبـادئ الأساسـية الحاكمـة لسياسـتها الخارجيـة، وباعتبـار ذلـك يخـدم المصـالح الأمريكيـة ويسـهم فـى خفـض مسـتوى التهديـدات للولايـات المتحـدة. ومنـذ إدارة كلينتـون (1993 – 2001) أعلنـت واشـنطن إلتزامهـا بنشـر الديمقراطيـة كمحـدد للسياسـة الأمريكيـة فـى فتـرة مـا بعـد الحـرب البـاردة، وأن هويـة الولايـات المتحـدة كدولـة لا يمكـن فصـلها عـن التزامهـا بـالقيم الليبراليـة والديمقراطيـة، وأن إضـافة ديمقراطيـات جديـدة إلـى الـديمقراطيات الموجـود سيوسـع، تـدريجياً، نطـاق "منطقة السلام الديمقراطية".[11]

فـى هـذا السـياق دعمـت الولايـات المتحـدة وشـركاؤها الأوربيـين علـى مـدى العقـدين الماضـيين تغييـرات جذريـة فـى عـدد مـن الـنظم بالفضـاء السـوفيتى السـابق، بـدءاً بجورجيـا 2003 ثـم أوكرانيـا 2004، فقيرجيزسـتان 2005، فيمـا تطلـق عليـه روسـيا "الثـورات الملونـة" وتعتبـره تـدخل سـافر فـى الشـأن الـداخلى لهـذه الـدول بهـدف تقـويض النفـوذ والمصـالح الروسـية بهـا، ومـد الهيمنـة الأمريكيـة وتوسـيع النـاتو علـى حسـاب روسـيا والأمـن والاسـتقرار فـى منطقـة تمثـل مجالهـا الحيـوى المباشـر، وتتهم واشنطن والغرب بإشعال النار فى "الجوار القريب" لها لتحرقها.

وقـد تجـددت المواجهـة الروسـية الغربيـة حـول مسـألة نشـر الديمقراطيـة منـذ أغسـطس 2020، مـع مـا اعتبرتـه موسـكو محاولـة لثـورة ملونـة فـى بلوروسـيا حيـث انـدلعت الاحتجاجـات ضـد نتـائج الانتخابـات الرئاسـية، ودعمهـا الغـرب حيـث رفـض الاتحـاد الأوروبـي نتـائج الانتخابـات وأكـد أنـه لا

يعترف بالرئيس لوكاشينكو رئيسا للبلاد بمجرد انتهاء ولايته فى 5 نوفمبر 2020، ورحب بتأسيس المعارضة البيلاروسية "مجلس التنسيق" برئاسة زعيمة المعارضة سفيتلانا تيخانوفسكايا التى احتضنتها ليتوانيا. وهى الأزمة التى سارعت روسيا بإحتوائها ودعم لوكاشينكو فى مواجهة الدعم الغربى حتى تجاوز الأزمة وأعاد فرض السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد.

ومن بلوروسيا إلى كازاخستان، ثالث أهم الجمهوريات السوفيتية السابقة بالنسبة لروسيا، بعد أوكرانيا وبلوروسيا، والعضو المؤسس فى منظمة معاهدة الأمن الجماعى والاتحاد الاقتصادى الأوراسى ومنظمة شنجهاى، وحيث قاعدة بايكونور الفضائية الروسية وحوالى 20% من السكان من الروس، اتهمت موسكو الغرب بالوقوف وراء الاحتجاجات التى اندلعت فى كازاخستان مطلع العام الجارى، والتى بدأت باحتجاج سكان مدينتي جاناوزين وأكتاو في منطقة مانجيستاو، وهي منطقة منتجة للنفط في غرب كازاخستان، على مضاعفة أسعار الغاز للمواطنين، واتسعت نطاقاً وامتدت إلى مدن أخرى، وخرجت عن السيطرة يوم 5 يناير فى "ألماتى"، العاصمة الصناعية للبلاد، حيث تحولت إلى مواجهات عنيفة وأعمال شغب ونهب للممتلكات العامة والخاصة وعمليات اعتداء وإشعال الإطارات، ومهاجمة مقر الإقامة الرئاسية في ألماتى، ومبنى وزارة الداخلية والمطار ومبنى البلدية ومكاتب القنوات التلفزيونية ومقر فرع حزب "نور وطن" الحاكم في المدينة وغيرها.

وقد اعتبرت موسكو الأحداث محاولة من الغرب لتقويض أمن وسلامة كازاخستان بالقوة باستخدام تشكيلات مسلحة مدربة ومنظمة، واعتبر الرئيس بوتين، ما حدث هجوم على كازاخستان وإنه عمل عدواني، وأن بعض القوى الخارجية والداخلية استغلت الوضع الاقتصادي في كازاخستان لتحقيق أغراضها، وأن أحداث كازاخستان ليست المحاولة الأولى ولن تكون الأخيرة للتدخل الخارجي، ولذا كان من الضروري الرد عليه دون تأخير، وأن منظمة معاهدة الأمن الجماعي تمكنت من اتخاذ إجراءات مهمة لمنع تدهور الأوضاع في كازاخستان، مؤكدا أن دول المنظمة أظهرت أنها لن تسمح بـ"ثورات ملونة".[12]

ولا تقل بلوروسيا وكازاحستان أهمية بالنسبة لموسكو عن أوكرانيا، ويفسر هذا التحرك الروسى السريع والحاسم تحت مظلة منظمة معاهدة الأمن الجماعى حيث تم إرسال قوات لحفظ السلام، روسية بالأساس، لتأمين المنشآت الحيوية فى البلاد خاصة فى العاصمة نور سلطان حتى تتفرغ القوات الكازاخية لمواجه المحتجين فى دعم مباشر وفورى للنظام الكازاخى فى مواجهة

القوى و"الارهابيين" المدعومين من الغرب من وجهة نظر كازاخستان وموسكو، ومحاولتهم تقويض ركيزة هامة للأمن القومى الروسى فى وسط آسيا، على غرار ما حدث فى أوكرانيا التى تعد ركيزة للأمن القومى الروسى فى أوروبا. وكان للدعم الروسى دور رئيسى فى سرعة تعافى كازاخستان وإستعادة الأمن والاستقرار فى البلاد فى غضون أسبوع وبدء انسحاب قوات حفظ السلام لمنظمة معاهدة الأمن الجماعى بدءً من يوم 13 يناير. وكانت واشنطن قد انتقدت التدخل الروسى فى الأزمة وطالبت موسكو بسرعة سحب الجنود الذين أرسلتهم إلى كازاخستان، ونفت الاتهامات الموجهة لها بالتواطؤ في تفاقم الوضع هناك.

وقد أنطوى السلوك الروسى فى الأزمة الكازاخية ومن قبلها الأزمة فى بلوروسيا على رسالة مباشرة مفاداها أن موسكو لن تسمح بزعزعة نفوذها عبر الإطاحة بالنظم الصديقة لها فى دول الجوار، وأن ما حدث فى أوكرانيا وجورجيا لن تسمح بتكراره تحت أى دعاوى، الأمر الذى يفاقم حالة الاحتقان مع الغرب الذى يجعل من نشر الديمقراطية وحماية حقوق الانسان هدفاً رئيسياً له وإن لم يكن الهدف الحقيقى.

خاتمة:

لعل السؤال الهام هو: ماذا بعد؟ وما هى مآلات هذا التصعيد بين روسيا والغرب؟ وهل وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود تتعزز معه احتمالية المواجهة العسكرية المباشرة بين الطرفين؟ أم إنه مازال هناك ضوء فى نهاية النفق ولم يستنفذ الحوار بعد بين الجانبين؟ وهل تُقدم روسيا على إشعال الموقف والمبادرة بعمل عسكرى بالهجوم على أوكرانيا كما يتخوف الغرب؟

من الواضح أن موسكو تسير فى اتجاة "خطوة مقابل خطوة"، فإذا كانت الخطوة الغربية تصعيدية سيقابلها خطوات مماثلة من جانب روسيا، والعكس. إن روسيا لن تبادر بالتصعيد إلا إذا صدر من الغرب ما يعتبر تصعيداً بالنسبة لها. فإذا قام الغرب بنشر صواريخ ستقوم روسيا أيضاً بنشر منظومات ليس فقط على حدودها الغربية مع أوروبا، وإنما فى الحديقة الخلفية للولايات المتحدة وتحديداً كوبا وفنزويلا.

وفى حال أقدمت كييف على عمل عسكرى بهدف إعادة إخضاع منطقة دونباس بالقوة لسلطتها، قد تقوم روسيا بالرد، وسيكون الرد الروسي فى حدود حماية الروس فى المنطقة ووقف العمليات العسكرية وأى ضربات من جانب كييف عليها، على غرار ما حدث فى جورجيا وأوسيتيا الجنوبية عام 2008، أى ليس اجتياحاً لأوكرانيا بالكامل، وإنما عمل "دفاعى" من وجهة نظر موسكو يمكن أن يحرك مفاوضات لاحقة.

إن سيناريو الحرب المفتوحة والمواجهة المباشرة بين روسيا والناتو يبدو بعيد عن الواقع، فالأمر أقرب إلى "تكسير عظام" من الجانبين لتحقيق مكاسب استراتيجية، وسوف ينتهى الأمر فى الغالب إلى تجميد الأوضاع وربما فرض مزيد من العقوبات الغربية على روسيا، يدعم هذا مجموعة من العوامل والمؤشرات. أولها أن الولايات المتحدة التى أعلنت انسحابها من أفغانستان لأنها لا تريد الاستمرار فى "حرب لا نهاية لها" على حد تعبير بايدن، لا يمكن أن تتورط فى مواجهه غير محسوبة العواقب كهذه فى أوروبا، وكل ما تريده واشنطن هو استمرار روسيا كشبح يهدد أوروبا لضمان بقاء الأخيرة فى الفلك الأمريكى. ورغم أن ويندي شيرمان، مساعدة وزير الخارجية الأمريكي أعلنت رفض المقترحات الأمنية الروسية واعتبرتها غير مقبولة مطلقا مؤكدة أن واشنطن لن تسمح لأحد بوقف سياسة الأبواب المفتوحة للناتو أمام أي دولة، إلا إنها أكدت اتفاق الطرفين على ضرورة منع نشوب حرب نووية.[13]

ثانيها، ميل الطرفين للحوار فقد أكد بايدن أن واشنطن لن تحارب عن أوكرانيا واستبعد إرسال قوات أمريكية إلى أوكرانيا إذا تعرضت لهجوم روسي، مؤكداً أن الهدف هو إقامة علاقات مستقرة وقابلة للتنبؤ بين واشنطن وموسكو.[14] ورغم تعثر المفاوضات الأخيرة فإن باب الحوار مازال مفتوحاً، وأعلن وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف فى 13 يناير أن موسكو تتوقع أن يسلم الغرب إليها اقتراحاته بشأن مبادرتها بخصوص الضمانات الأمنية في غضون أسبوع، وإن كان قد حذر من مماطلة الغرب وأن روسيا لن تنتظر رد الغرب على مبادرتها إلى ما لا نهاية. ووصف المتحدث باسم الرئاسة الروسية ديميتري بيسكوف، سلسلة المفاوضات التي جرت مع الولايات المتحدة والناتو حول الضمانات الأمنية لروسيا، بأنها لم تكن ناجحة، إلا إنه أكد وجود إرادة سياسية لدى روسيا لمواصلة الحوار، وإن المطلوب هو تحقيق نتيجة ملموسة من خلاله. وأعلن ستولتنبرج، عقب مفوضات بروكسل أن الحلف مهتم بالحوار مع روسيا لكنه يرفض تقديم

أي تنـازلات بشـأن أوكرانيـا، وأنـه علـى اسـتعداد لاسـتئناف بعثتـي الطـرفين لـدى بعضـهما الـبعض دون شروط مسبقة.

إن التصـعيد الروسـى الغربـى الحـالى لـيس هـو الأول مـن نوعـه وإنمـا هـو حلقـة فـى سلسـلة طويلـة مـن الشـد والجـذب بـين روسـيا والغـرب علـى مـدى العقـد الماضـى، وذلـك فـى إطـار مرحلـة رخـوة مـن إعـادة تشـكيل النظـام الـدولى وتأكيـد التحـول لتعدديـة القـوى، وفـى سـياق مـن صـراع المكانـة والنفـوذ وتناقضات المصالح بين الجانبين والتى سوف تستمر فى المستقبل المنظور.

---

[1] Полный текст Минских соглашений, РИА Новости, 12.02.2015, https://ria.ru/20150212/1047311428.html

[2] Ежегодная пресс-конференция Владимира Путина, 17 декабря 2020, http://kremlin.ru/events/president/news/64671

[3] Военная доктрина Российской Федерации, (http://kremlin.ru/events/president/news/47334)

[4] Концепция внешней политики Российской Федерации, утверждена Президентом Российской Федерации В.В.Путиным 30 ноября 2016 г, (http://www.mid.ru/foreign_policy/news/-/asset_publisher/cKNonkJE02Bw/content/id/2542248)

[5] Гарантии безопасности РФ и США намерены обсуждать по трем направлениям, Известия, 31 декабря 2021, https://iz.ru/1272071/2021-12-31/garantii-bezopasnosti-rf-i-ssha-namereny-obsuzhdat-po-trem-napravleniiam

[6] Press conference by NATO Secretary General Jens Stoltenberg following the meeting of the NATO-Russia Council, 12 Jan. 2022, https://www.nato.int/cps/en/natohq/opinions_190666.htm

[7] NATO rejects Russian accusations on missile deployment, Reuters, December 14, 2021, https://www.reuters.com/world/nato-rejects-russian-accusations-missile-deployment-2021-12-14/

[8] Paul Sonne, John Hudson & Ellen Nakashima, U.S. plans to discuss missile deployments with Russia as part of effort to defuse Ukraine crisis, National Security, January 8, 2022, https://www.washingtonpost.com/national-security/us-russia-talks-ukraine/2022/01/07/2fb5874e-6ff6-11ec-974b-d1c6de8b26b0_story.html

[9] При условии встречных шагов со стороны НАТО»: Путин заявил о готовности не размещать в Европе ракеты 9М729, 26 октября 2020, RT, https://russian.rt.com/world/article/796474-zayavlenie-vladimir-putin-drsmd

[10] Рябков заявил об угрозе нового ракетного кризиса, РИА Новости, 27.12.2021, https://ria.ru/20211227/ryabkov-1765615003.html

[11] Sean M. Lynn-Jones, Why the United States Should Spread Democracy, Belfer Center for Science and International Affairs, Harvard Kennedy School, March 1998.

[12] Переломный момент: что Путин и другие президенты обсудили на саммите ОДКБ, Ведомости, 10 января 2022, https://www.vedomosti.ru/politics/articles/2022/01/10/904112-odkb-sobitiya-kazahstane

[13] Deputy Secretary Wendy R. Sherman at a Press Availability, US Department of State, January 12, 2022, https://www.state.gov/deputy-secretary-wendy-r-sherman-at-a-press-availability-2/

[14] Biden says U.S. ground troops 'not on the table' for Ukraine, The Washington Post, December 8, 2021, https://www.washingtonpost.com/politics/biden-says-ground-troops-not-on-the-table-but-putin-would-face-severe-economic-sanctions-for-ukraine-invasion/2021/12/08/3b975d46-5843-11ec-9a18-a506cf3aa31d_story.html